والتيارات القومية ، على البحث عن طريق آخر .

ثم جاءت هزيمة حزيران لتقضي نهائياً على مقولة الذوبان الفلسطيني الكامل في العروبة واغفال الخصوصية الفلسطينية . وكان على الشعيبي ، الذي لم تفته هذه الملاحظة ، أن يعمقها اكثر ، وأن يتوقف عندها بدل ان يمر بها مروراً عابراً.

الملاحظة الرابعة : ويستنتج القارىء العادي من هذا الكتاب الغني بالمعلومات ، أن الانظمة العربية الاقليمية لم تكن تتذكر القومية العربية والوحدة إلا حين يختص الامر بالمسألة الفلسطينية . فقد جاء في قرارات مؤتمر اريحا ما يلي : « لا يمكن للبلاد العربية أن تقاوم الاخطار التي تجابهها فلسطين الا بالوحدة القومية الشاملة . ويجب البدء بتوحيد فلسطين مع شرق الاردن مقدمة لوحدة عربية حقيقية » (!) وقد رصد الشعيبي هذه المسألة دون تعمق كاف ؛ ففي الصفحة ٢٥ ، وفي الصفحة ١٢١ ، نقرأ شرح حازم نسيبة ، وزير الخارجية الاردني عام ١٩٦٥ ، حين يرفض اياً من مطالب منظمة التحرير، مبرراً ذلك بضرورة « الانصهار البشري والقومي » (لاحظ كلمة القومي) . ولا يتذكر وصفي التل الوحدة العربية الا حين يهاجم الدعوة الى دولة فلسطينية كان يتم الترويج لها في الضفة الغربية . فنراه يؤكد في البيان الذي القاه امام مجلس النواب الاردني ، بعد ثلاثة اشهر من احداث ايلول ، على رفض الاردن لمشروع الدولة الفلسطينية ، لأنه ضربة لمعنى الوحدة المقدسة (ص ١٦٥) . ويأتي التلهوني ليدلي بدلوه ويبين حرصه على وحدة فلسطين والاردن (!؟) ، فيعتبر في مؤتمر قمة الجزائر أن الامة العربية بأسرها مسؤولة عن تمثيل الشعب الفلسطيني . ونحن لا نعترض هنا على المضمون ، وانما على المصدر والغاية .

الملاحظة الخامسة : ان السؤال البالغ الاهمية الذي طرحه الفلسطينيون في حركة القوميين العرب هو مفتاح اساسي لهذه المسألة ، وهو : ما هو الدور الخاص بالفلسطينيين في نطاق التزامهم بالعمل القومي الشامل ؟

ويذكر الشعيبي أن هذا السؤال طرح نفسه بحدة بعد قيام دولة الوحدة بين مصر وسوريا

إن أهمية الدور الذي لعبه فشل الوحدة بين مصر وسوريا ، ثم هزيمة الحركة القومية العربية بقيادة عبد الناصر في العام ١٩٦٧ ، يشكلان محطتين تاريخيتين اساسيتين في فهم تحول الوعي الكياني الفلسطيني من مجرد ارهاصات تتراكم الى ماهية وكيف واضحين ان رصد هذه الظاهرة لم يغب عن صفحات كتاب الشعيبي الذي وصفها قائلاً : « وقد جاء تخلي الفلسطينيين عن حركتهم الوطنية الخاصة ، ومؤسساتهم السياسية ، متزامناً مع الصعود العارم الذي شهدته الحركة القومية » (ص ٤٣) ليشير بعد ذلك الى الشعار الذي ساد تلك المرحلة : « الوحدة طريق العودة » . لكن الشعيبي لا يذهب الى آخر المطاف ليقول ان تراجع الحركة القومية العربية عبر الانفصال ، ثم عبر هزيمة حزيران ، ادى بطريقة او بأخرى الى انبعاث الشعور « بالفلسطنة » ووعي الخصوصية والهوية الفلسطينية وترسيخ فكرة الكيان . فاذا كان الفلسطينيون قد انصرفوا عن هويتهم ليغرقوا في المد العروبي ، فان انحسار هذا المد قد أنضج الظروف الموضوعية للارتداد نحو الذات .

وهنا نلاحظ مسألة غامضة جاءت عبر قول الشعيبي : ان الشعور بالكيانية الفلسطينية قد خفت في تلك الفترة (١٩٦٧ - ١٩٧٠)، ولكن الحقائق تدلنا على أن رفع شعار « الدولة الفلسطينية الديموقراطية » واللغط والجدل والنقاش الحاد الذي تعرض له ، دليل على ان هذا الوعي بالكيانية غير المغلقة لم يخب ولم يتقهقر . بل ان طرح شعار : « تحرير فلسطين من النهر الى البحر » في تلك الفترة نفسها ، التي اعتبر الشعيبي ان الحس الكياني قد ضمر فيها، انما هو دليل آخر على عدم تقلص وتقهقر الوعي الكياني . فالشعار الاول واضح ، والشعار الثاني بلغ درجة تحديد حدود وموقع هذه الدولة : « من النهر الى البحر » .

والدليل على خطورة و أهمية طرح الدولة الديموقراطية كحل في تلك الفترة التي اطلق عليها الشعيبي اسم « غيبة الوعي الكياني » ، هو ذلك الجدل الذي اثاره هذا الشعار بين فصائل المقاومة نفسها . فها هي جبهة التحرير العربية تنتقد هذا الشعار عام ١٩٦٩ ، قائلة في كتاب بعنوان « الطريق القومي لتحرير فلسطين» الصادر عن دار الطليعة في نيسان ١٩٧٠ : «... كلما تقدمت الجهود الرامية الى تصفية القضية الفلسطينية على طريق تنفيذ قرار مجلس الامن ، ارتفع الحديث بين اوساط رجعية واستعمارية عن ضرورة تطبيق شعار الدولة